"الزيّ العثماني الرّسمي بالجزائر من القفطان المشرقي إلى البُرْنُس المحلّي

-خطوة جريئة للاندماج؟ أم هو ولوع الغالب بالمغلوب؟!-".

أ.د/ الرزقي شرقي

مقدمة:

اشتهرت مجتمعات الشّمال الإفريقي منذ أقدم العصور بارتداء رداءٍ صوفي بسيط، عابر لزمانه، كما يُستشفّ من تحدّيه بشموخ، ونجاح باهر مختلف تيّارات الموضة الجارفة عبر الزّمن، حيث ظلّ ثوْبا لا غننا عليه لدى أفراد مختلف شرائح المجتمع المحلّي منذ ذلك الحين حتّى الفترة المعاصرة، تاريخ بداية التّخلي الإرادي عنه من قِبل أهله، ويُصبح مهدّدا في وجوده واستمراره، ما لم تسارع الهيئات الوصية على قطاع التّراث الثّقافي بنوعيه المادّي، واللاّمادي إلى أخذ التّدابير الوقائية اللاّزمة، والتّعجيل بتقييده في قائمة التّراث الإنساني على مستوى المنظمة الأممية للتّربية والعلوم والثّقافة "اليونسكو" قبل فوات الأوان، مثل ما فعلت تلك الهيئات نفسها مع "الشدّة التّلمسانية"[1] سنة (2011)م بمناسبة احتفال تلك المدينة العريقة بتظاهرة: "تلمسان عاصمة الثّقافة الإسلامية".

إنّه البُرْنُس كما يُنْطق في اللّغة الفصحى، أو "البَرْنُوس" كما يُنطق به مُحرَّفا في عامّية الجزائريين، حيث كان محلّ إعجاب، واهتمام كبيرين من قِبل الفنّانين، والرّحالة، والمسافرين الأجانب من أولئك الذّين جابوا البلاد طولا وعرضا في غضون الفترة الحديثة، لاسيما بعد إقدام العثمانيين الوافدين الجُدد على إيالة الجزائر، واستقرارهم بها كسادة عليها في الفترة الممتدّة ما بين سنتيْ (1518 – 1830)م، واتخاذه كزيّ رسمي لهم عِوض جُبّتهم المشرقية المعروفة، باسم "الفرجة"، ومعطفهم الطّويل، المسمّى بـــ: "القفطان" بداية من القرن (17)م؛ ومن ثم يمكن إثارة الإشكالية الآتية: كيف حدث ذلك؟ وما الدّافع إليه؟.

1). مكانة البُرْنُس في الزيّ المحلّي بالجزائر خلال الفترة الحديثة:

لفْظ "البُرْنُس" في المعاجم العربية القديمة، هو مصطلح عامّ، واسع الدّلالة، دقيق التّصوّير، حيث ينعت على مرّة واحدة جملة من الأثواب الرّجالية بنوعيْها الطّويلة والقصيرة في آنٍ واحدٍ[2]، ما دامت

---

[1] "الشدّة التّلمسانية"، هي عبارة عن لباس فاخر، مكلّل بالحليّ والمجوهرات، ترتديه العروس يوم زفافها، وقد تميّزت به مدينة تلمسان عن سواها من المدن الجزائرية منذ فترة القرون الوسطى، حتّى اليوم.

[2] يمكن الإشارة في هذا المقام إلى وجود بعض الاستثناءات لهذه القاعدة العامّة، كوجود "بُرْنُس" مماثل للبرنس الرّجالي، أخفّ، وأدق منه، كانت ترتديه العروس ببلادنا في محْفل زفافها إلى وقت قريب منّا، وإن لم تجده تكتفي بلبس البُرنس الرّجالي المعتاد من غير أن يجرى عليه أي تعديل، وكذلك البرانس القصيرة التي شاع انتشارها بين نساء المسلمين في الأندلس خلال فترة القرون الوسطى، مثل ما هي مجسّدة في بعض رسومات قصر الحمراء بغرناطة (الشّكل: 4) على سبيل الذّكر لا التّخصيص والحصر.

تشترك جميعا فيما بينها بخاصّية الانطواء على قَلْمون، أي غطاء الرّأس. وهو بذلك يشمل الدُّرّاعة، والمُمْطر (المعطف)، والجُبّة، وغيرها من الأثواب الطّويلة (الأشكال: 1 – 3)؛ كما ينعت القلنسوة الممتدّة التّي كان يرتديها النُّسّاك في صدر الإسلام[3]، ونحوها من الأثواب القصيرة، المُنْسدلة على الكتفين (الشّكل: 4). إذ يعتبر الرّداء المشهور بهذا الاسم (البُرْنُس)[4] في بلدان الشّمال الإفريقي (الشّكلان: 5 – 6) بمثابة واحد من أشكاله المتعدّدة، ليس إلاّ. علما أنّ أصل اشتقاق المصطلح المذكور في نظر أهل الاختصاص هو لفظ "البِرْسُ"، ومعناه القطن المعروف؛ وما شابهه من بقية مواد الخام المستعملة في نسج الأثواب الموصوفة أعلاه، كقطن البردي ونحوه[5].

أمّا فيما يتعلّق بمكانة هذا الرّداء الأصيل في الزّيّ المحلّي بالجزائر خلال الفترة الحديثة، فقد كان الرّداء الذي لا يمكن الاستغناء عليه في كلّ الأحوال، كالجلد الذي لا يمكن أن ينسلخ منه صاحبه على حدّ وصف النّقيبين في الهندسة العسكرية الفرنسية "روزي" (ROZET) و"كارات" (CARETTE) سنة (1833)م[6]، حيث يحظ بعناية فائقة من صاحبه؛ كما كانت له عدّة أغراض وظيفية يؤدّيها، مثل ما هو موضّح أدناه بشيء من التّفصيل؛ ناهيك عن تشابهه في الشّكل العام، وتعدّد مستويات جودته واتقانه، ومظاهر زخرفته وأناقته تبعا لتفاوت مستوى الدّخل الفردي لكلّ شخص (اللّوحة: 1، والشّكل: 5)، كما يمكن أن يُستنبط بوضوح من ذلك الوصف الدّقيق الذّي خصّه به الرّحالة، والمسافرون الذين زاروا البلاد آنذاك، كالرّاهب الإسباني الذّائع الصّيت "دييغو دو هايدو" (DIEGO DE HAEDO) سنة (1612)م[7]؛ و"فارس دارْفيو" (CHEVALIER D'ARVIEUX)، مفوّض الملك الفرنسي فوق العادة لدى الباب العالي بإسطنبول، ثم قنصل فرنسا بعدّة مدن عربية، منها "حَلَب"، و"طرابلس"، ومدينة "الجزائر"، سنة (1660)م[8]؛ و"لوجييه دو تاسي"

---

[3] ابن منظور (أبو الفضل جمال الدّين بن محمّد بن مكرم)، **لسان العرب**، دار المعارف، مصر، (طبعة جديدة ومحققة، دون ذكر تاريخ الطبع)، المجلد 03، ص 270، عمود 2.

[4] يُعرف "البُرْنُس" في اللّهجات المحلّية المغاربية بأربع تسميات مختلفة على الأقلّ هي: "البَرْنُوسْ" كما هو الحال في جلّ القطر الجزائري؛ و"أخنيف" (خنيفة) لدى أمازيغ جنوب المغرب الأقصى؛ و"السَّلْهَم" بشمال القطر المذكور بالنّسبة للبرنس الأبيض اللّون؛ و"الخَيْدُوس" لنعت نظيره الأسود.

[5] الفيروزابادي (مجد الدّين محمد بن يعقوب)، **القاموس المحيط**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1978، الجزء الثّاني، ص 198.

[6] ROZET & CARETTE, **L'Algérie**, Série l'Univers, ou histoire et description de tous les peuples, de leurs religions, Mœurs, Coutumes, etc. Imprimerie de l'institut, Paris, 1850, p 221.

[7] DE HAEDO (D), **Topographie et histoire générale d'Alger; La vie à Alger au seizième siècle**, Traduit de l'espagnol et notes BERBRUGGER (A) & Dr. MONNEREAU, éditions grand Alger livres, Alger, 3ème édition, 2007, pp 49 - 50.

[8] CHEVALIER D'ARVIEUX, **Mémoires**, par R. P JEAN – BAPTISTE LABAT, éditeur CHARLES-JEAN-BAPTISTE DELESPINE, Paris, 1735, Tome 5, pp 281 – 284.

(LAUGIER DE TASSY)، محافظ البحرية الفرنسية بهولندا سنة (1725)م[9]، وعالم الطّبيعيات الإنجليزي الدّكتور "طوماس شُو" عام (1729)م[10]، والجزائري "حمدان بن عثمان خوجه"، أحد أعيان مدينة الجزائر، ومن كبار تجّارها في نهاية الفترة الحديثة[11]؛ إضافة إلى "رونودو" (RENAUDOT)، مستهلّ فترة الاحتلال الفرنسي عام (1830)م على وجه الخصوص[12].

فجميع هذه المصادر التّاريخية إذن، تؤكّد من جهتها ثلاث حقائق أساسية حول البرُنس المحلّي على أقلّ تقدير: مفاد الأولى منها، أنّ ارتداء البُرنس من طرف الجزائريين كان ظاهرة عامّة، سواء في حواضر الإيالة، أو في مناطقها الرّيفية الجبلية، أو في باديتها القاحلة، حيث يُقيم السّكان الرُّحّل؛ وأنّ ارتداءه كان مُعمما بين مختلف الأجناس المُكوّنة لفئات المجتمع الجزائري آنذاك، أي الأمازيغ، والعرب، والأتراك، واللاجئين الأندلسيين، كبارا وصغارا على قدم المساواة؛ بصرف النّظر عن تباين أطيافهم الدّينية (مسلمون، ويهود)، ونِحلهم المذهبية (مالكية، وحنفية، وإباضية).

وثانيها أنّ التّشبيه الذي تقدم به "روزي" و"كارات" عام (1833)م لم يكن من قبيل المبالغة، كما قد يتوهم البعض على اعتبار أن البُرنس كان يُلبس بمفرده لدى فقراء المجتمع، ويظلّ على أجسامهم متسخا حتّى وإن أصابه بلل المطر، فيترك جفافه لعامل الهواء، أو التّدفئة بالنّار من غير أن يُنْزع، فيبلى على ذلك الحال، وتنسلّ خيوطه من الأسفل خيطا بعد خيط (الصّورة: 1)[13]؛ وارتداؤه برفقة قميص، أو أكثر على حسب اختلاف فصول السّنة بالنّسبة للمنتسبين إلى الطّبقة الميسورة الحال، بينما يُوضَع على أحد الكتفين فوق ألبسة فارهة للزّهو والتّبختر من قِبَل الفئة الغنية، المقيمة عادة في مدن وحواضر الإيالة بصرف النّظر عن أصولها العرقية، إن كانت من الأندلسيين النّازحين إلى مدن وحواضر سواحل شمال إفريقيا، أومن أصول محلّية عريقة (عرب وأمازيغ)، أو حتّى من العثمانيين (الشّكلان: 6 – 7).

وآخرها أن دور البرنس لم يقتصر على ارتدائه ساعة حضور الولائم، وعقد الاجتماعات، وحضور حلقات العلم والتّدريس، كما كانت تفعل الفئة المتعلّمة، ووجوه القوم؛ أو وضعه على الأكتاف

---

[9] DE TASSY (L), **Histoire du royaume d'Alger avec l'Etat présent de son gouvernement, de ses forces de terre et mer & de ses revenus, police, justice politique, et commerce**, éditeur Henri SAUZET, Amsterdam, 1725, p 57.

[10] SHAW (Th), **Voyage dans la régence d'Alger; ou description géographie, physique, philologique, etc. de cet Etat**, Traduit de l'anglais, avec de nombreuses augmentations, de notes géographiques et autres par J. Mac Carthy, éditeur MARLIN, Paris, 1830, pp 112 – 113.

[11] حمدان بن عثمان خوجه، **المرآة**، تقديم وتعريب وتحقيق العربي الزبيري، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، الطّبعة الثّانية، 1982، ص 61 – 62، 67، 74، 97.

[12] RENAUDOT, **Alger, Tableau du royaume, de la ville d'Alger et de ses environs, état de ses forces de terre et de mer, description de mœurs et des usages du pays,** Librairie universelle de P. MANGE AINE, Paris, 1830, p 33.

[13] حمدان بن عثمان خوجه، مصدر سابق، ص 61.

للتّجمل والزّهو بالذّات، كما كان يفعل الأثرياء، أثناء تجوالهم في شوارع المدن والحواضر فقط؛ وإنّما تعدّاه إلى وظائف أخرى عند بقية الفئتين المتبقيتين، فأهل الفئة الميسورة الحال مثلا كانوا يستغلّون أطرافه، وقلمونه كقفّة لحمل البضائع عند تسوّقهم، وخاصة أولئك الذين يقطعون مسافات طويلة من أهل الجبال والبوادي في سبيل حضور أسواق المدن، والأسواق الموسمية على وجه الخصوص[14]؛ أمّا أهل الفئة المعوزة، فكانوا يفترشون شطرا منه على حصير من الحلفاء إن وُجِدت، ويتدثرون بالشّطر المتبقي منه ساعة خلودهم للنّوم[15].

ومن أجل ذلك، خصّ الجزائريون هذا الرّداء المتميّز باهتمام خاص[16]، واكتفائهم بواحد منه على مدى طول العمر في معظم الأحيان بصرف النّظر عن مستوى جودته وفخامته[17]، كما يؤكد ذلك "لوجييه دو تاسي" بقوله: "بعض المور الأثرياء، لديهم رداءً مماثلاً[18]، حيث يحفظونه، ويخصّونه بعناية فائقة، حتّى أنّه يبقى لهم مدى الحياة؛ ولذلك عندما تمطر عليهم السّماء أثناء السّفر، يطوُّونه بحرص شديد، ثمّ يدسّونه تحت حجر، ويجثمون عليها عُراة على أمل أن يصحو الجوّ، وتجفّ جلودهم، ثمّ يعيدون ارتداءه، ويتابعون السّفر"[19].

2). الأصول التّاريخية للبرنس المحلّي:

اجتهد زعيم المدرسة "الكولونيالية" في التّاريخ القديم وعلم الآثار، الباحث الفرنسي الكبير "ستفين قزال" (STEPHANE GSELL) لوضع منطلقات لغوية، وأخرى ثقافية تاريخية للبرنس المحلّي، فرجّح بشأن اشتقاقه اللّغوي، فرضية انحداره من المصطلح اللاّتيني "بيروس" (BIRRUS)، أو "بوروس" (BURRUS)[20]، اسم معطف بدائي قديم، شاع ارتداؤه بمقاطعات الشّمال الإفريقي في ظلّ الاحتلال الرّوماني للمنطقة[21].

لكن سرعان ما أعرب عن تحفّظه قائلا بأنّ ذلك لا يعني بالضّرورة انبجاس البرنس من ذلك المعطف[22] على خلاف مواطنه، أستاذ كرسيّ الآثار الإسلامية بجامعة الجزائر لأوّل مرّة عام (1919)م، الباحث "مارسيه جورج" (MARÇAIS GEORGES)، الذي تمادى في محاولة ربط

---

14 SHAW, Op.cit, p 113.

15 حمدان بن عثمان خوجه، مصدر سابق، ص 62.

16 MARÇAIS (G), **Le costume musulman d'Alger**, Série archéologie et histoire, collection du centenaire de l'Algérie (1830 – 1930), Librairie Plon, Paris, 1930, pp 23 - 24.

17 حمدان بن عثمان خوجه، مصدر سابق، ص 61.

18 يعني بُرنسهم الفخم، المماثل في شكله العام لشكل برنس نظرائهم البدوّ البسيط.

19 DE TASSY (L), Op.cit, 57.

20 GSELL (ST), **Histoire ancienne de l'Afrique du nord**, Librairie Hachette, Paris, 1927, Tome 6 (Les royaumes indigènes vie matérielle, intellectuelle et morale), p 25.

21 MARÇAIS (G), Op.cit, p 17.

22 GSELL (ST), Op.cit, T6, p 26.

البرنس المحلّي بلباس الرّومان على نحو غير مؤسس، حينما أعتبر البرنس سليل الرّداء الذي كان يرتديه أفراد الجيش الرّوماني، المعروف باسم "السّاغوم" (SAGUM)[23]، ثوب بسيط من غير قلمون يُلتحف به على طريقة الإحرام لدى الحجاج المسلمين، ويُثَبّت في أعلى الكتف الأيسر بدبوس تثبيت؛ أو بصورة أدق مقاربته بالساغوم الأسود (SAIE)، سليل السّاغوم الرّوماني، حيث كان يرتديه الإسبان، منسدلا على المنكبين، قبل أن يُربط على مستوى القفص الصّدري بدبوس بدل الخياطة المعهودة في البرنس المحلّي[24].

وفاته أمران أساسيان: أوّلهما أنّ "ستفين قزال" حالفه الحظ في العثور بمظان النّصوص القديمة الإفريقية على الرّداء الذي كان يُعرف باسم "استراغولا" (STRAGULA)، أو "لوديكس" (LODIX)، والذي وصفه الشّاعر المسيحي "كوريبوس" (CORIPPUS) المعاصر له في إحدى أبيات قصائده الشّعرية على أنّه رداء طويل متخذ من الصّوف، وليس له ذراعين، كان يرتديه الأهالي بشمال إفريقيا، حيث يلفّ جميع أطراف الجسم، وينسدل على الكتفين في هيئة البرنس[25]. ولكنه لم يجرء على ربط أصول البرنس به، فضلا عن ذكره للسّاغوم الإسباني الذّي ركّز عليه "مارسيه جورج" كثيرا في طرْحه من غير أن يربطه بالبرنس أيضا؛ ناهيك عن بقية التّشبيهات العديدة التّي أبداها بعض الباحثين على مرّ الزّمن في هذا المقام، كالدّكتور "طوماس شُو"[26]، و"غوتييه" (GAUTIER)[27] على سبيل الذّكر لا التّخصيص والحصر، دون أن يجرء ولا واحد منهم ربط أصول البرنس بتلك الأثواب الغربية المتعدّدة، لا لشيء إلاّ لكون تلك التّشبيهات من وحيّ الخيال الخصب، وتفتقد لما يؤكّدها من الأدلّة والبراهين الدّامغة.

وثانيهما أنّ هذا الباحث لم يُجْهد نفسه في حسم فرضية احتمال ظهور أصول هذا الثّوب العريق عند الأهالي قبل بداية فترة الاحتلال الرّوماني بالمنطقة، فمن يدري؟ كما لم يكلّف نفسه عناء تتبع مراحل تطوّره، أو بعبارة أوضح مراحل انتقاله من لباس روماني خالص إلى أن تحوّل إلى بُرنس على الهيئة المعروفة لدينا اليوم، مع العلم أنّ "فارس دارْفيو" من قبل قد أكّد أنّ موضة لباس أهالي إيالة الجزائر، موضة جامدة لم تتغيّر على امتداد قرون طويلة، كما يمكن أن يستنبط من تعليقه السّاخر[28]. وهو ما يقرّه "مارسيه" نفسه في مَوْضع آخر من بحثه[29]. ممّا يؤكّد بوضوح تام، تخلّي "مارسيه جورج" عن حياد الباحث المتمرّس، والانصياع لنزوات المُعمّر المتعصّب لإنجاح فعاليات احتفالية "الذّكرى

---

23 MARÇAIS (G), Op.cit, p 18.

24 Ibid, p 17.

25 GSELL (ST), Op.cit, T6, p 24.

26 SHAW, Op.cit, pp 112 - 113.

27 MARÇAIS (G), Op.cit, p 17.

28 CHEVALIER D'ARVIEUX, Op.cit, p 280.

29 MARÇAIS (G), Op.cit, p 31.

المئوية للاحتلال الفرنسي بالبلاد (1830 – 1930)م" باستنباطات مجانية، ما دامت الغاية تبرّر الوسيلة في مثل تلك الظّروف التّاريخية والثّقافية، التّي كانت تمرّ بها الجزائر.

ومهما كان من أمر، فإنّ البرنس المحلّي بالصّورة المعهودة، هو رداء اختص به أهل الشّمال الإفريقي من ليبيا غربا إلى المحيط الأطلسي شرقا، دون سواهم من المجتمعات الشّرقية والغربية على حدّ سواء[30]. وأنّ انتشار ارتدائه بينهم في فترة القرون الوسطى قد كان على نطاق واسع جدّا، كما يمكن أن يُستنبط من تلك الإشارات العابرة التّي خصّه بها بعض الرّحالة والمؤرخين المغاربة بين الفينة، والفينة الأخرى، كيحيّى بن خلدون، وغيره[31].

علما أنّ الاجتهاد الذّي تقدم به المستشرق، والرّاهب الفرنسي "ويليام مارسي" –الأخ الوحيد والأكبر لجروج مارسيه– بخصوص سبب تصنيف أمازيغ المنطقة ناهية الفترة القديمة، وبداية فترة القرون الوسطى عند نسّابة العرب باسم: "البُتر، والبَرانس"، لا أساس له من الصّحة، حينما ذهب به تخمينه الشّخصي إلى ربط تلك التّسميتين بطبيعة لباس هذان اللّفيفان القبليان الكبيران، أي ارتداء الألبسة القصيرة من طرف أصحاب اللّفيف القبلي الأوّل، وارتداء البرانس من قِبَل المنتسبين للّفيف القبلي الآخر[32]. وفاته أنّ تلك التّسمية، هي تسمية مقتبسة من النَّسَب، وليس اللّباس كما توهم، حيث قال عبد الرّحمن بن خلدون بهذا الشّأن في موْضعين متفرقين، ما نصّه في الموضع الأوّل: "كان مادغيس الأبتر جدّ البرابرة البُتْر"[33]، وفي الموضع الثّاني: "والبربر ولد هوّار بن أوريغ بن بُرْنُس"[34].

بينما امتدّت تأثيرات هذا الرّداء المحلّي في المناطق المجاورة، كمصر المتاخمة لبلاد المغرب الإسلامي من الشّرق[35]، وبلاد الأندلس، المرتبطة به، ارتباطا عضويا في الشّمال منذ الفتح الإسلامي الأوّل عام (711)م، حتّى سقوط غرناطة في سنة (1492)م[36]، حيث لا يُستبعد دخوله إلى هناك مع قوّات طارق بن زياد المغربي في نظر الدّارس، وتترسخ دعائمه بشكل أوثق مع المرابطين في القرن الحادي عشر ميلادي، المتدخّلين لوقف المدّ المسيحي الجارف من الشّمال الإسباني في اتجاه الممالك الإسلامية، ممالك الطّوائف بجنوب شبه الجزيرة الإبيرية، واستمراره بها إلى غاية حرب الاسترداد، كما هو موثّق في رسوم قصر الحمراء بغرناطة للرّجال (الشّكل: 1)، والنّساء (الشّكل: 4) على حدّ

---

30 Ibid, p 19.

31 ابن خلدون (أبو زكريا يحيى بن محمد)، **كتاب بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، نشره وصحّحه بال ألفرد، مطبعة بيير فونطانا الشّرقية، الجزائر، 1903، الجزء الأوّل، ص 22.

32 MARÇAIS (G), Op.cit, p 19.

33 ابن خلدون (عبد الرّحمن)، **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر (كذا)**، تعليق الحواشي وفهرسة خليل شحاتة، مراجعة سهيل زكار، نشر دار الفكر، بيروت، 2000، الجزء 6، ص 149.

34 نفسه، الجزء 6، ص 182.

35 LANE, **MANNERS**, Vol II, p 7, d'après MARÇAIS (G), Op.cit, p 19.

36 MARÇAIS (G), Op.cit, p 19.

سواء من جهة؛ ومن جهة ثانية ما يُستنبط من أنموذج البرنس الأندلسي الفاخر الذي هبط به الأندلسيون، النّاجون بأنفسهم من خطر التّنصير القصري، وبطش محاكم التّفتيش إلى مدينة الجزائر، وبقية المدن السّاحلية بالإيالة في غضون الفترة الحديثة (الأشكال: 5 – 7)، حيث تبدو الفروق الجمالية بينه، وبين نظيره المحلّي البسيط (الشّكل: 2) واسعة جدّا.

3). الخصائص النّوعية للبرنس وأبرز مراكز تصنيعه بالجزائر في الفترة الحديثة:

يبدو البرنس المحلّي (الصّورة: 2) في هيئة رداء بسيط، مقوس الطّرفين، حيث يرتبط بعضهما ببعض عن طريق خياطة يدوية مكثّفة في هيئة مثلثين قصيرين، يتقابلان رأسيا على مستوى القفص الصّدري (الصّورة: 2)، ويُسدل على الكتفين (الشّكل: 5)، أو يلبس عبر الرّأس كأي ثوب آخر (الصّورة: 2، والشّكل: 6)، ثمّ يُترك حُرّا ليسترسل نحو الأسفل، حتّى يبلغ مداه الرّكبتين، أو منتصف السّاقين في السّابق لتجنب بلله، وتلطخه بالأوحال والقاذورات في دروب وأحياء غير مبلّطة آنذاك على خِلاف بُرنس اليوم المسترسل إلى الكعبين، دون أن يصادف صاحبه مشقة أجداده في الفترة الحديثة. مزوّد بقلمون عريض مربع الشّكل، تتخلّله خياطة على مستوى هامة الرّأس، عادة ما تُدعّم بسفيفة رفيعة، وغالبا ما تنتهي في الخلف بكرية زخرفية منتفخة من الصّوف بالنّسبة لبرانس الصّوف، أو خِصْلات قصيرة من الحرير الرّفيع، النّاعم بالنّسبة لبرانس الجوخ، وبرانس الحرير العالية الجودة (الشّكلان: 5 – 6). لكن ما هو جدير بالتّذكير في هذا المقام، أنّ البساطة التّي يبدو عليها البرنس في مظهره العام، ليست كذلك ساعة نَسْجه وخياطته، حيث يتطلّب على الأقلّ تقنيتين جدّ مختلفتين: إحداهما نسوية خالصة، تُمارس من طرف نساء الحَضْر، ونساء الأرياف، سواء كنّ رُحَّل أو مستقرّات على حدّ سواء، قوامها نَسْج الرّداء في منسج ينتصب عموديا (الصّورة: 3)؛ وثانيهما تقنية رجالية، مقتصرة الممارسة على حرفيّين متخصّصين، ولا تتوفّر سوى في المدن والقرى العامرة، ألا وهي خياطة، وزخرفة البرنس بالخيوط المفتولة، والسّفائف، والتّشبيكات المعدّة يدويا بالإبرة (الصّورة: 4)، حيث كانت أحد المشاهد اليومية المعتادة في الأحياء السّكنية آنذاك، هو جلوس الحرفي في دكانه، أو في حجرة من حجرات بيته (الصّورة: 4)، منهمكا في خياطة البرنس، الذي تقدمه بدوره خيوط طويلة ممدودة، وفي قبالته أحد الأبناء، أو الزّوجة لمساعدته في فتل تلك الخيوط بين أصابعه من الطّرف الآخر (الصّورة: 4)[37].

أمّا بخصوص أماكن توزيع صناعة البرنس المحلّي عبر خارطة إيالة الجزائر، فقد كان يُنسج في الحواضر، والمدن، والقرى، والدّواوير، والمداشر، والخيام بمختلف أنحاء الوطن[38]، إلاّ أنّ أشهر

---

[37] تُشكّل الخيوط التّي يمرّرها الحرفيّ أفقيا "الأرضية"، فيما تشكّل الخيوط الممدودة نحو الأمام، والتّي يمسك بها الصّبي، أو المرأة من الطّرف الآخر، ويعمل على تقاطعها بين يديه، "السّلسلة العمودية" من القطعة المنسوجة.

[38] حمدان بن عثمان خوجه، مصدر سابق، ص 67، 74؛ SHAW, Op.cit, p 112; ROZET & CARETTE, Op.cit, p 220.

مراكز التّصنيع التّي كانت تزوّد سكان الجزائر بأفخم الأنواع فهي: مدينة تلمسان التّي اشتهرت بصناعة البرانس الرّفيعة منذ فترة القرون الوسطى، حيث يقول يحيى بن خلدون بهذا الخصوص ما نصّه بالحرف الواحد: "غالب تكسيبهم [يعني أهل تلمسان] الفلاحة وحُوك الصّوف، يتغالون في عمل أثوابه الرّقاق، فتلقى الكساء والبرنس عندهم من ثمانِ أواق، والإحرام من خمس، بذلك عُرفوا في القديم والحادث"[39]. وأضاف عليه "فارس دارفيو" سنة (1660)م، منوّها بحذق أهل تلمسان في صناعة بُرنس الوَبْر المبطّن، حيث قال منبهرا: " تُنسج البرانس في تلمسان على نحو متميّز، حيث يبدو أحد الوجهين متموّجا... فيما يبدو الآخر على هيئة فروّ الحَمَل المجعّد، المستورد من منطقة البحر الأسود. يرتدونه والوبر نحو الباطن في الشّتاء، ويقلبونه نحو الخارج صيفا، أو عندما تمطر، لأنّ المطر يجري على سطحه، ولا ينفذ إلى داخله؛ وحتّى إن مطرت عليه السّماء طويلا، يكفي نزعه، ونفضه، ثمّ إعادة ارتدائه، حيث يعود إلى حالته الجافّة، وكأنّ المطر لم يهطل عليه البتّة"[40].ومعسكر التّي لمع نجمها في صناعة البرنس خلال الفترة الحديثة فقط، واستمرّ آخر معاقلها قلعة بني راشد في الانتاج إلى غاية فترة الاحتلال الفرنسي (1830 – 1962)م، حيث قال بشأنها حمدان بن عثمان خوجه ما نصّه: "وفي هذه المنطقة [يعني منطقة معسكر] تصنع البرانس الشّهيرة، ذات اللّون الأسود الطّبيعي، والأقمشة الكتيمة المستعملة في جميع أرجاء إيالة الجزائر، وتصدّر إلى مصر، وتركيا. حيث يباع البرنس الواحد من برانسها المفهفهة بسعر يبلغ المائة فرنك فرنسي، ولقد أصبح الفرنسيون أنفسهم من هُوّاة تلك البرانس"[41].

وأمّا فيما تعلّق بطريقة استغلال تلك البرانس من طرف مختلف شرائح المجتمع الجزائري في الفترة الحديثة، فيتضح لنا جليا من جملة الملاحظات الثّاقبة التّي ابداها "فارس دارفيو" بخصوصه أنّ "المور" أي البلديون، وهم المولدون بمدن وحواضر الإيالة بصرف النّظر عن أجناس آبائهم وأمهاتهم السّابقة، إن كانوا أمازيغ، أو عرب، أو لاجئين من الأندلس على حسب تصنّيف الرّاهب الإسباني "دييغو دو هايدو" من قبل[42]، فيضعون على أكتافهم برانس بيضاء نظيفة، ناصعة البياض (الشّكلان: 6 – 7)[43]، تحلّ، محلّ المعاطف؛ بينما أهل العلم، ورجال الإفتاء، فيلبسونها لباسا من ذلك النّوع الأبيض الموصوف[44]. أمّا العثمانيون فيتميزون عن بقية طوائف المجتمع الجزائري بارتداء برانس سوداء

---

[39] ابن خلدون (يحيى)، مصدر سابق، الجزء الأوّل ص 22.

[40] CHEVALIER D'ARVIEUX, Op.cit, p 284.

[41] حمدان بن عثمان خوجه، مصدر سابق، ص 97.

[42] DE HAEDO (D), Op.cit, p 49.

[43] CHEVALIER D'ARVIEUX, Op.cit, p 281.

[44] CHEVALIER D'ARVIEUX, Op.cit, pp 281, 284.

مطرّزة بالحرير تواضعا، وإرضاء للأهالي[45]، حيث يتخذونها من قماش الجوخ المستورد شتاء، ومن الحرير المموّج، أو الصّوف النّاعم صيفا، فيلبسونها ساعة توجههم إلى الدّيوان، أو يضعونها على أكتافهم على نسق البَلْديين ساعة تجوالهم في شوارع المدينة[46]. وأمّا أطفال مدينة الجزائر على عهد "فارس دارفيو" دائما، فكانوا يرتدون برانس حمراء اللّون[47]، وهو اللّون الذي خصّ به العثمانيون عمّالهم من الأشخاص المهمّين في أرياف الإيالة، قبل أن يصبح لونا رسميا لفرقة الخيالة في جيش الأمير عبد القادر (اللّوحة: 2)، ومفرزة الصّبايحية (الخيالة) من الأهالي بالجيش الفرنسي في وقت لاحق (الصّورة: 5)[48].

4). بدايات تأثّر العثمانيين الوافدين على الجزائر بارتداء البرنس:

لم يكن تأثّر العثمانيين النّازحين من آسيا الصّغرى في اتجاه الجزائر بمظاهر ثقافة الألبسة المحلّية سريعا بالرّغم من التحاق إيالة الجزائر بالباب العالي رسميا سنة (1518)م، حيث لم تظهر ملامح أولى التّأثيرات إلاّ في غضون القرن الموالي، أي القرن السّابعة عشر ميلادي بشكل محتشم، وكان رداء البرنس، هو أوّل ثوب محلّي يتأثر به العثمانيون على النّحو المفصّل أدناه، كما يمكن أن يُستقى من شهادة العيان التّي أدلى بها الرّاهب الإسباني "دييغو دو هايدو" بهذا الخصوص، ومفادها: أنّ لباس أفراد الجيش الانكشاري الذين حلّوا لتوّهم من القسطنطينية –أو بلاد الأناضول– ولم يكسبوا بعد قدرا كافيا من المال، يُمَكِّنهم من اقتناء لباس جديد يُساير موضة لباس أهل مدينة الجزائر آنذاك، كانوا يرتدون ملابسًا على الطّراز التّركي المحلّي، المختلف كثيرا على طراز بني جلدتهم من أولئك المنخرطين في صفوف كتائب "الأوجاق" (الميليشية) منذ فترة زمنية طويلة بمدينة الجزائر، قبل أن يسترسل في وصف هندامهم بدقّة متناهية، كان من أبرزها فيما يخصّ هذا البحث، ارتدائهم لِجُبَّب طويلة على الطّراز المجري، مشابهة لجبب الأقْنان في المملكة الإسبانية الموحدة وقتئذ على حدّ تشبيه "دييغو دو هايدو" نفسه، حيث تنحصر على الصّدر والخسر، فيما يسترسل ذراعيْها الفضفاضين حتّى يلامسان الأرض[49]. تلك الجبّة التّي حطّ "دييغو دو هايدو" من شأنها عند تشبيهها بجُبَب العبيد الذّين يعملون لديهم في الأرض بإسبانيا، هي التّي ما فتئت تتوارى عن الأنظار شيئا، فشيئا، ويتم تعويضها

---

[45] يشير "فارس دارفيو" إلى التّواضع في هذا المقام على اعتبار أن البرنس الأسود في تلك الفترة بالمغرب الأقصى كان مخصّصا لليهود بوصفهم طبقة وضيعة ومحتقرة في المجتمع المغربي، الذي كان لأهاليه حق ارتداء البرانس البيضاء، أو الحمراء، غير أنّ واقع الحال يجعل العثمانيين في صدارة هرم المجتمع الجزائري آنذاك، كما يبدو بجلاء من لبسهم للبرانس الحريرية الفاخرة، المنهي عنها في الأحاديث النّبوية الصّحيحة.

[46] CHEVALIER D'ARVIEUX, Op.cit, pp 283 - 284.

[47] Ibid, p 284.

[48] ROZET & CARETTE, Op.cit, p 206.

[49] DE HAEDO (D), Op.cit, p 111.

تدريجيا بالبرنس المحلّي إلى الأبد[50]. حيث أصبح منذ ذلك الحين أفراد الجيش الانكشاري من أولئك الجنود البسطاء "يولداش" (YOLDACH)، والعرفاء –جمع عريف– "أُودَباشي" (ODABACHI)، بل وحتّى النُّقَباء "بُولُوكْبَاشي" (BOULOUKBACHI)، لا تزيد عدّتهم من الملابس التّي يأخذونها معهم ساعة الخروج إلى حملات التّهدئة، أو جمع الإتاوات بالأرياف الجزائرية عن: قُمصانيْن، أو ثلاثة، وسروال، زيادة على الألبسة التّي يرتدونها على ظهورهم، كما يأخذ كلّ واحد منهم معه سجّاد صغير وغطاء للنّوم، إضافة إلى معطف، أو بُرنس لاتقاء بلل الأمطار في حالة ما صادف خروجهم فصل الشّتاء[51].لكن الأهمّ من كلّ ذلك، أنّ في ظرف أقلّ من خمسين عاما قادمة، تحوّل البرنس إلى زيّ رسمي، شامل لمختلف أفراد عَلية القوم، وأفراد طاقم الحكومة العثمانية المجتمعين في قصر الجنينة بمدينة الجزائر على حدّ وصف "فارس دارفيو" لهم سنة (1660)م في أحد جلساتهم البروتوكولية[52]، ووضعه بموجب ذلك حدّا لهيمنة جبّة "الفرجة" برفقة "القفطان" المشرقيين على اعتبار أنّهما شكّلاَ في هذا النّسق العام، موضة عابرة امتدّت منذ تاريخ التحاق إيالة الجزائر بالخلافة العثمانية رسميا سنة (1518)م، حتّى منتصف القرن (17)م، تاريخ تعويضهما بالبرنس المحلّي إلى غاية عام (1830)م[53]، تاريخ نهاية الفترة الحديثة، وبداية الفترة المعاصرة في تاريخ الجزائر العام، كما هو معلوم.

5). مظاهر ترقية البرنس من طرف العثمانيين بالجزائر إلى زيّ بروتوكولي رسمي:

وصف "فارس دارفيو" طاقم حكومة الإيالة في أحد جلساته الرّسمية، وجميع أعضائها من الأشخاص المدنيين والعسكريين يرتدون برانس بيضاء أو سوداء رفيعة، تماشيا مع منازلهم البروتوكولية في جلسة العمل، حيث قال: يتصدّر الدّاي المجلس مرتديا برنسا أبيضا رفيعا؛ وعلى يمينه الكاتب الأوّل في الحكومة مرتديا برنسا هو الآخر؛ وعلى يساره أغا الأوجاق (الميليشية) كذلك، ومن حولهم يصطفّ بقية الضّباط العسكريين، تبعا لتسلسل رتبهم العسكرية، وأقدميتهم في الوظيفة، وهم يرتدون جميعا هذه المرّة برانس سوداء قاتمة، عادة ما تتخذ من الجوخ المستورد شتاء، أو من الصّوف الطّبيعي، أو الحرير الأسودين صيفا، وهم حفاة. قبل أن يشبههم، وهم على تلك الهيئة بالأغسطيين[54]، وبرانسهم برداء "بيارن" (BEARN)[55].

---

50 MARÇAIS (G), Op.cit, p 42.

51 DE HAEDO (D), Op.cit, p 77.

52 CHEVALIER D'ARVIEUX, Op.cit, pp 283 - 284.

53 MARÇAIS (G), Op.cit, pp 43 - 44.

54 CHEVALIER D'ARVIEUX, Op.cit, p 283; MARÇAIS (G), Op.cit, p 43.

55 مدينة تقع في القسم الشّرقي من جبال "البيريني"، المطلّة على المحيط الأطلسي بشمال غرب فرنسا.

استنتاج:

انطلاقا من العرض السّابق يتضح جليا بأنّ ارتداء العثمانيين للبرنس المحلّي في حياتهم اليومية بمدن إيالة الجزائر، كما في جلساتهم الرّسمية على أعلى المستويات الإدارية وأرقاها بالدّيوان، مردّه في المقام الأوّل والآخر إلى تأثّر هؤلاء الوافدين الجُدد بموضة لباس، وأناقة الأهالي السّاحرة (الشّكلان: 6 – 7)، كما يمكن أن يُستنبط من تأخّرهم في ارتدائه إلى غاية القرن (17)م، بينما واكب دخولهم الجزائر لأوّل مرّة مستهلّ القرن (16)م، أي بمعنى أوضح لم يكن ارتداؤه لديهم إرضاءً للأهالي، ومحاولة التّقرّب منهم بالتّواضع لهم، وتطييب خواطرهم، كما ذكر "فارس دارفيو"؛ ولا بدافع فاعليته الوظيفية على الرّغم من أنّ هذا الأخير قد امتدح برنس الوبر المبطّن كثيرا بالنّظر لتأقلمه مع ظروف الأحوال الجوّية المتقلّبة في الإيالة، تبعا لاختلاف الفصول الأربعة، ومدى فعاليته في الوقاية من أمراض الرّبو والزّكام، النّاجمين على رطوبة هواء هذا الجوّ المتقلّب[56].

ولعلّ خير دليل على ذلك: وضعهم البرنس على الأكتاف ساعة تجوالهم في شوارع المدينة على طريقة البلديين (أبناء البلد)، وكذا توغلّ موضة ارتداء البرنس إلى عمق دار الخلافة العثمانية نفسها، كما إليه حمدان بن عثمان خوجة؛ تؤكّده إحدى اللّوحات الفنّية للرّسام "ديكومب" (DECAMPS)، المعروضة بمتحف "شونتيلي" (CHANTILLY)، موسومة بـــ: "مفرزة الحَرَس على الطّريق الرّابط بين سميرنيه (SMYRNE)، ومغنيزيا (MAGNESIE)"، حيث تُظْهر أفراد الجيش الانكشاري، وهم يرتدون برانس على الطّريقة الجزائرية[57]. ناهيك عن تأثر الفرنسيين الأقحاح به لاحقا، وارتدائه من طرف العسكريين، والمدنيين المبعوثين من قِبل حكومتهم في مهام رسمية إلى بقية البلدان العربية الأخرى[58].

---

56 CHEVALIER D'ARVIEUX, Op.cit, p 284.

57 MARÇAIS (G), Op.cit, p 19, marge 1.

58 حمدان بن عثمان خوجه، مصدر سابق، ص 97؛ Ibid, p 43.



الشّكل (1): فَارِسٌ مسلم، يرتدي نوعا من أنواع البرانس، رسم جداري ملون بأحد سقوف قصر الحمراء في غرناطة، يعود تاريخه إلى القرن (14)م، نقلا عن: "جورج مارسيه".



الشّكل (2): فُرْسان، يرتدون "بَرَانِسْ"، جداريات "حِصار مدينة تونس" على يديْ الملك الإسباني "شارل الخامس" عام (1535)م، إنجاز "فلاندر" (FLANDRE) على ورق المقوّى "الفيرمياني"، نقلا عن: "جورج مارسيه".



الشّكل (3): شخص من "مُور" الشّمال الإفريقيحسب "فِيسِيلْيُو" (VECELLIO)، القرن (16)م.

نقلا عن: "جورج مارسيه".



الشّكل (4): رداء نسوي قصير، مزوّد بقلمون، رسم جداري ملون، قصر الحمراء بغرناطة،نقلا عن: "جورج مارسيه".



الشّكل (5): "حَضْرِي" (بلْدي) يرتدي "البُرْنُسْ"، حيث "اسْدَارة"(قِفْلُ البُرنس على مستوى القفص الصّدري) تتسدل خلف الكتفين، القرن 18م،نقلا عن: "جورج مارسيه".



الشّكل (6): تاجر من المور، حسب"فاشموت" (WASCHMUT)، نقلاعن: "جورج مارسيه".



الشّكل (7): رجل من المور بلباسه الأنيق، حسب "ب. روبو" (B. ROUBAUD)، نقلا عن: "جورج مارسيه".



اللّوحة (1): أجناس الجزائريين رسم "فيليبوتو" (PHILIPPOTEAUX)،طبعة حجرية من طرف "بايو" (BAYOT)، نقلا عن: BERBRUGGER, **Algérie historique, pittoresque et Monumentale**, In-folio, Paris, 1843, 5e partie.



اللّوحة (2): قائد مفرزة نظامية بخيالة الأمير عبد القادر،رسم "أ. جينان" (E. GINAIN)، طبعة حجرية ملوّنة من طرف "جاني لونج" (JANET- LANGE)،(الرّواق الملكي للّباس، 1844)، مدينة الجزائر، نقلا عن: "جورج مارسيه".



الصّورة (1): كهل جزائري يرتدي برنسا مهترئا تماما، الصّورة ملتقطة بين سنتي (1880 – 1890)م، المصدر: Recueil Types et Scènes d'Algérie, T 1, Photo N° 10.



الصّورة (2): شاب جزائري يرتدي برنسا أسودا،

المصدر: أرشيف المكتبة القومية الفرنسية بباريس.



الصّورة (3): إمرأة جزائرية بصدد نسج برنسا أبيضا،

المصدر: أرشيف المكتبة القومية الفرنسية بباريس.



الصّورة (4): خياط برانس برفقة بعض أفراد عائلته،

المصدر: أرشيف المكتبة القومية الفرنسية بباريس.



الصّورة (5): مفرزة الصّبايحية (الخيّالة) من الأهالي في جيش الاحتلال الفرنسي،

المصدر: Recueil Types et Scènes d'Algérie, T 3, Photo N° 29.